شتمنى ابن آدم

٢٣ - يقول ربُّ العزَّة سُبْحانه فى الحديثِ القُدسىِّ :

« شَتَمَنِى ابْنُ آدَمَ ، وَلَمْ يكُنْ لَهُ ذَلِكَ .

وَشَتْمُهُ إيَّاىَ قَوْلُه :

اتَّخذَ اللهُ وَلَدًا .

وَأنَا الأحَدُ الصَّمَدُ (١) ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ ،

وَلَمْ يَكُنْ لِى كُفُوًا (٢) أَحَدٌ » (٣) .

هذه قضية فى قِمَّة العقيدة ، ولذلك تكررتْ فى القرآن الكريم ، وتكرر الرد عليها مرة بعد أخرى .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يريدنا أن نعرف أن هذا ادعاء خطير مُسْتقبح مُسْتنكر ومَمْقُوت .

---

(١) الصمد : من صفاته تعالى وتقدس ؛ لأنه أصمدت إليه الأمور فلم يقصد فيها غيره . وقيل : الصمد السيد الذى ينتهى إليه السؤدد ، وقيل : الصمد الدائم الباقى بعد فناء خَلْقه . والصمد: السيد المطاع الذى لا يُقضى دونه أمر . وقيل : الذى يُصمد إليه فى الحوائج أى يُقصد . [لسان العرب - مادة : صمد] .

(٢) الكفء : النظير والمساوى . وكفء الرجل : المساوى له فى قوته وقدرته ومنزلته مثل نظيره . فمعنى قوله «ولم يكن لى كفوًا أحد» أى : ليس لله نظير ولا مثيل .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٩٧٤) ، والنسائى فى سننه (٤/ ١١٢) من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ، وقد أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣١٧) ضمن صحيفة همام بن منبه ، و (٢/ ٣٥٠) من طريق ابن لهيعة. والحديث صحيح .

ولقد عالجت سورة مريم المسألة علاجًا واسعًا ، علاجًا اشترك فيه انفعال كل أجناس الكون غير الإنسان .

واسمع إلى قول الحق سبحانه ، وهو يقول :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (١) ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ (٢) مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم]

انفعال السماوات والأرض والجبال وغيرها من خلق الله التى تلعن كل مَنْ قال ذلك ، بل وتكاد تشعر شعوراً منها بفداحة الجريمة أن تنفطر السماء ، أى : تسقط قطعًا صغيرة ، وتنشق الأرض أى : تتمزق ، وتَخِرّ الجبال ، أى : تسقط كتراب .

كل هذا من هَوْلِ ما قيل ، ومن كَذِب ما قيل ؛ لأن هذا الادعاء افتراء على الله .

وإذا نظرت للذين قالوا إن لله ـ سبحانه وتعالى ـ ولدًا ، ستجد أن هناك أقوالاً متعددة :

---

(١) الإدُّ والإدَّة : العَجب والأمر الفظيع العظيم والداهية ، وجمع : إدَد . وهى الدواهى العظام . [لسان العرب ـ مادة : أدد] .

(٢) فطر الشيء يفطره : شقه ، وتفطر الشيء : تشقق . والفطر : الشق . ومنه قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار] .

- هناك قول قاله المشركون ، قال الحق سبحانه عنهم :

﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ [1] لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ [2] (١٥٦) ﴾ [الصافات]

- وهناك قول اليهود ، وهو ما يرويه لنا القرآن :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .... (٣٠) ﴾ [التوبة]

- وهناك قول النصارى :

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ...(٣٠) ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ [3] قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [التوبة]

هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله تعالى ، فالإنسان يتخذ ولداً لعدة أسباب:

ـ إما لأنه يريد أن يبقى ذكره فى الدنيا بعد أن يرحل .. والله سبحانه دائم الوجود .

---

(١) الإفك : الكذب . ورجل أفَّاك : كذَّاب . وأفك الناس : كَذَبهم وحدَّثهم بالباطل . {اللسان - مادة : أفك } .

(٢) السلطان : الحجة والبرهان . {اللسان - مادة : سلط} .

(٣) المضاهاة : مشاكلة الشيء بالشيء . معنى يضاهون قول الذين كفروا أى يشابهون فى قولهم هذا قول من تقدم من الكافرين . أى : إنما قالوه اتباعًا لهم . {اللسان - مادة : ضها } .

ـ وإما لكى يُعينُه ابنه عندما يكبر ويضعُفُ .. والله سبحانه دائم القوة .

ـ إما ليرث ماله ومَا يملك .. والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومَنْ عليها .

ـ وإما ليكون عِزْوةً له .. والله جَلَّ جلاله عزيز دائمًا .

وهكذا تنتفى كُلُّ الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى هذا الادعاء ، فهو جَلَّ جلاله له كمال الصفات أزلاً ، وبكمال صفاته خلق هذا الكون وأوجده .

لذلك فهو ليس فى حاجة إلى أحد من خلقه ؛ لأنه ساعةَ خلق كانت له كُلُّ صفات القدرة على الخلق ، بل قبل أن يخلق كانت له كُلُّ صفات الخالق ، وبهذه الصفات خلق .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ كان خالقًا قبل أن يخلق أحدًا من خلقه ، وكان رازقًا قبل أن يوجد مَنْ يرزقه ، وكان قهارًا قبل أن يوجد مَنْ يقهره ، وكان توابًا قبل أن يوجد مَنْ يتوب عليه .

وبهذه الصفات أوجد ، وخلق ، ورزق ، وقهر ، وتاب على خَلْقه .

إذن : كل هذا الكون لم يُضِفْ صفة من صفات الكمال إلى الله ، بل إن الله بكمال صفاته هو الذى أوجد .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى حديثه القدسى :

« **يا عبادى** ، كلكم ضال ـ إلا مَنْ هديتُه ، فَاسْتَهْدُونى أهدكم .

يا عبادى ، كلكم جائع ، إلا مَنْ أطعمتُه ، فَاسْتَطعِمُونى أُطعمكم .

يا عبادى ، كلكم عَارٍ ، إلا مَنْ كسوته ، فاسْتَكْسُونى أَكْسُكُم .

يا عبادى ، إنكم تُخطِئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا ،

فَاسْتَغْفِرونى أغفر لكم .

يا عبادى ، إنكم لن تبلُغوا ضُرِّى فَتضرُّونى ، ولن تَبْلُغوا نَفْعى فَتَنْفعُونى .

يا عبادى ، لو أن أوَّلكم وآخركُمْ ، وإنْسَكُم وجِنّكم كانوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلكى شيئًا .

يا عبادى ، لو أن أوَّلكم وآخركم ، وإنْسَكم وجِنَّكم ، كانوا على أفجر قَلْب رجل واحد ، ما نقص ذلك من مُلْكى شيئًا .

يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجِنَّكم ، قاموا فى صعيد[1] واحد ، فسألونى ، فأعطيتُ كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدْخِلَ فى البحر »[2] .

فهؤلاء الذين قالوا هذه القَوْلة وغيرها من الأقوال الباطلة قال عنهم رَبُّ العزة:

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦) ﴾ [الحج]

والقرآن كله ناطق بصفات الكمال فى الإيجاد ، والخَلْق ، والإحياء والإماتة ، القيوم على خَلْقه ، السميع ، البصير ، العليم .

---

(١) الصعيد : وجه الأرض . وهو الموضع العريض الواسع . [اللسان - مادة : صعد] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥ / ١٦٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

يقول الحق سبحانه فى سورة الأنعام :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ (١) الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا (٢) ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ (٣) دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ (٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام]

---

(١) الفلق : الشق . وفلق الله الحب بالنبات : شقه . وكذلك فلق الأرض بالنبات والسحاب بالمطر . وإذا تأملت الخلق تبين لك أن أكثره عن انفلاق . [لسان العرب - مادة : فلق] .

(٢) الحسبان : الحساب . قال الزجاج : بحُسْبان يدل على عدد الشهور والسنين وجميع الأوقات. [اللسان - مادة : حسب] . ويقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... ﴾ [يونس].

قال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٤٠٧) : « فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام » .

(٣) القِنْو : العِذْق ، وهو ذو الشماريخ المكللة بالبلح . ويسمى أيضًا الكِبَاسة ، وجمعه : أقناء وقِنوان .

(٤) ينع الثمر يينع : أدرك ونضج . واليَنْعُ : النضج . واليانع : الناضج . [اللسان - مادة : ينع] .

ومن العجيب أن هناك مَنْ جعلوا لله شركاء !!

إلهٌ له كُلُّ هذه الصفات من أول : فالق الحب والنوى ، وفالق الإصباح ، وجعل الليل سكنًا ، والشمس والقمر حسبانًا ، والنجوم نهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وأنزل لنا من السماء ماء ، وأخرج لنا النبات منه خَضِرًا .

كُلُّ هذه المسائل كان يجب أن تكون صارفة للناس ، إلى أن الله وحده هو الخالق المستحقُّ للعبادة ، ولا تتجه أبدًا بالعبادة أو بالإيمان لغيره .

ولكن من العجيب أنهم جعلوا لله شركاء ، فقال تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ (١) بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنعام]

والتعجب من أمرين اثنين :

- أن يجعلوا شركاء لله من الجن أو من الملائكة ، مع أن الله هو الذى خلق العابد والمعبود .

- والعجيبة الأخرى أنه خلقهم وخَرَقُوا له بنين وبنات بغير علم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنعام]

---

(١) خرق الكذب وتخرَّقه : اختلقه . والتخرّق : اختلاق الكذب وافتراؤه . ويقال : خلق الكلمة واختلقها وخرقها واخترقها إذا ابتدعها كذبًا . [لسان العرب - مادة : خرق] .

أى : تنزيهًا له عن الشرك فى الذات ، وفى الصفات ، وفى الأفعال ؛ لأن ذاته ليست ككل الذوات ، وأفعاله ليست ككل الأفعال ، وصفاته ليست ككل الصفات .

ثم يقول تعالى :

﴿ بَدِيعُ (١) السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام]

وما دام سبحانه بديع السماوات والأرض ، وهو بقدرته الذاتية الفائقة خلق السماوات والأرض الأكبر من خَلْق الناس .

إذن : فإنْ أراد ولدًا لَطَرأ عليه هذا الابن بالميلاد ، ولا يمكن أن يُسمَّى ولدًا إلا إذا وُلِدَ ، وسبحانه مُنَزَّه عن ذلك .

ثم لماذا يريد ولدًا ، وصفاتُ الكمال لن تزيد بالولد ، ولم يَكُنْ الكون ناقصًا قبل ادّعاء البعض أن للحقِّ سبحانه ولدًا .

إن الكونَ مخلوقٌ بذات الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ، والناس تحتاج إلى الولد لامتداد الذكرى ، وسبحانه لا يموت ، مِصْداقًا لقوله تعالى :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .... ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص]

والبشر يحتاجون إلى الإنجاب ليعاونهم أولادهم ، وسبحانه هو القوىُّ الذى خلق ، وهو حَىٌّ لا يموت ؛ لذلك فلا معنى لأن يُدّعى عليه ذلك .

---

(١) البديع : من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها ، أى : خالقها ومبدعها فهو سبحانه الخالق المخترع لا عن مثال سابق . [لسان العرب - مادة : بدع] .

وما كان يصحُّ أن تُناقش هذه المسألة عَقْلاً ، ولكن الله ـ لُطْفًا بخلقه ـ وضَّح وبيَّن مِثْل هذه القضايا .

ثم إذا كان لله ـ سبحانه وتعالى ـ زوجة وولد ، فَمَنِ الذى وُجِد أولاً ؟

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد وُجِد أولاً ، ثم بعد ذلك أوجد الزوجة والولد فهو خالق ، وهما مخلوقان .

وإنْ كان كل منهم قد أوجد نفسه ، فهم ثلاثة آلهة ، وليسوا إلهًا واحدًا .

وهذه يردُّ عليها رَبُّ العزة ، فيقول :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

فلو أن هناك آلهة غير الله سبحانه لصنع كلُّ إله شيئًا لا يقدر على صُنعه الإله الآخر ، ولأصبح الأمر صِراعًا بين آلهة متنافرة .

ويقول أيضًا :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾ [المؤمنون]

وعِلَّة التسبيح والتنزيه عن أن يكون له ولد تأتى فى قوله تعالى :

﴿ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ . . . (٦٨) ﴾ [يونس]

لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة : إما استعانة ، وإما اعتمادًا ، وإما

اعتـدادًا ، وإما امـتدادًا . وكل هذه أمـور باطلة بالنسبـة له سبحـانه ، وهو الحق الأعلى .

وهم ليس عندهم حجة تدل على أن الله تعالى اتخذ ولدًا ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس]

والحق سبحانه يسوق قول كل من اليهود والنصارى ، فقال :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾

[التوبة]

وهكذا نجد أنهم لم يُنزِّهوا الله ، وأخلُّوا بالإيمان الحق .

ولا بُدَّ أن نعلم أن مَنْ قالوا : إن عُـزَيْرًا ابن الله . ليسوا هم كل اليـهود ، بل جماعة منهم فقط هـى التى جعلتْ عُزَيرًا ابنًا لله ، لما رأى أفرادها على يديه نعمة أفاءها (١) الله تعالى عليه .

فقالوا : هذه نعـمة عظيمة جدًا لا يمكن أن يعطيهـا ربنا لشخص عادى ، بل أعطاها لابنه .

ذلك أن اليهود بعـد سيدنا موسى عليـه السلام قتلوا الأنبياء ، وعـاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها ، ولكن طفلاً لم يعـجبه مشهدُ قَتْل

(١) أفاء الله عليه فيئًا : منحه غنيمة فى الحرب بالنصر أو بغير الحرب . والمقصود أنها نعمة أنعم الله بها على عزير .

الأنبياء ، فخرج شارداً فى الصحراء ، مهاجراً وهاربًا ، فقابله شخص فى الطريق ، فسأله : لماذا أنت شارد ؟ قال : خرجتُ أطلب العلم .

وكان هذا الشخص هو جبريل عليه السلام ، فعلَّمه أن لله توراة ، فحفظها فصار واحداً من أربعة ، هم فقط مَنْ حفظوا التوراة : موسى ، وعيسى ، وعزير ، واليسع .

ولأن الكتب قديمًا لم تكُنْ تُكتب على ورق رقيق مثل زماننا ، بل كانت تُكتب على الأحجار وسعف النخيل ؛ لذلك كان وزن التوراة يقدر بسبعين حِمْل بعير .

وحين رجع عزير حافظًا للتوراة ، اندهش قومه وقالوا : لا بُدَّ أنه ابن الله ؛ لأن الله أعطاه التوراة ، وآثره على القوم جميعًا .

ونشأتْ جماعة من اليهود تؤمن بذلك ، وكان منهم سلاَّم بن مشكم ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف ، ونعمان بن أوفى .

وحينما أنزل الله قوله :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة]

لم ينكر اليهود المعاصرون لهذا النزول تلك المسألة ولم يُكذِّبوها ، فكأن هناك من اليهود الذين كانوا بالمدينة مَنْ كان يؤمن بذلك ، وإلا لاعترضوا على هذا القول [1] .

---

(١) قال ابن كثير فى (قصص الأنبياء ، ص : ٣٨٠) بتحقيقى : «روى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبدالله بن سلام عن قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ (التوبة) لم=

وهذا دليل على أن ما جاء بالآية يَصْدُق على بعضهم ، أو هم عالمون بأن قومًا منهم قد قالوا ذلك .

وكذلك قالت النصارى عن عيسى عليه السلام ، فجاء قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة]

يُوضِّح لنا سبحانه أن البنوة لله جاءت فيها مشبهة ، كان يجب أنْ يلتفتوا إليها ، ويُنزِّهوا الله عن ذلك ؛ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يَصِفُ عباده بأنهم عباد الله ، وأنَّ الخَلْق كلهم خَلْقُ الله تعالى .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَن يَسْتَنكِفَ (١) الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ [النساء]

فمصدر الشرف للإنسان أن يُحِسَّ ويشعر بتجلِّى الله عليه بعبوديته له ، والمسيح عليه السلام لا يجد غضاضة (٢) أنْ كان عَبْدًا لله ، ولا يستكبر على ذلك ، بل هو يشرفُ به .

= قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كَتْبه لبنى إسرائيل التوراة من حفظه ، وقول بنى إسرائيل لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب ، وإن عزيرًا قد جاءنا بها من غير كتاب . فرماه طوائف منهم ، وقالوا : عزير ابن الله ».

(١) استنكف : أنفَ وامتنع . وهو أن يقول : لا . أى : لن ينقبض ولن يمتنع من عبودية الله . وقال الزجاج فى ذلك : أى ليس يستنكف الذين يزعمون أنه إله أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون ، وهم أكبر من البشر . [لسان العرب ـ مادة : نكف] .

(٢) غضَّ الأمرُ منه : أى وضع ونقص من قدره . يُقَال : ما عليك بهذا غضاضة أى نقص ولا انكسار ولا ذل . [لسان العرب ـ مادة : غضض] .

والملائكة المقرَّبون أيضًا تشرُف بهذا الأمر ، والملائكة المقربون هم الذين لا يعلمون شيئًا عن هذا العالم ، وليس لهم عمل إلا التسبيح لله ؛ لأنهم عرفوا العبودية لله .

وهى عبودية ليست لمن يَستذِلّ ، لكنها لمنْ يُعِزّ .

وهى عبودية ليست للذى يأخذ ، ولكنها للذى يُعطى .

والذى يستنكف من ذلك لا يعرف قيمة العبودية لله ؛ لذلك لا يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ، ولا الملائكة المقرَّبون .

والمولَى ـ سبحانه وتعالى ـ هو الخالق والقادر على كل شىء ، خلق كل الخلق من عدم ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا .

وقد جاءتْ الشُّبهة عند بعض من أتباع المسيح من أنه أُوجِدَ من دون أب .

ونقول لهم : لو أن هذا الأمر جاء لكم من هذا الطريق ، فكان من الأَوْلَى أن تجىء ذات الشبهة فى خلق آدم ؛ لأن قصارى ما فى المسيح أنه جاء من غير أب ، ولكن آدم جاء من غير أب ، ومن غير أم ، فأيُّهما كان أَوْلَى أن يكون ابنَ إله؟

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران]

فالحقُّ سبحانه يخلق الشيء ـ أيّ شيء ـ بأسباب ، وكُلُّ الأسباب مخلوقة له .

والولد منَّا ـ في جمهرة الناس ـ ينشأ من اجتماع الأب والأم ، والشيء المردود بين شيئين له صور منطقية أربعة :

- إما أنْ يوجد بوجود شيئين ، ذكر وأنثى . وهذا لجمهرة الخلق .

- وإمَّا أنْ يُوجد بانعدام الشيئين ، مثل : آدم .

- وإمَّا أنْ يُوجد بوجود واحد من الشيئين ، وهو الذكر ، مثل حواء .

- وإمَّا بوجود واحد من الشيئين ، وهي الأنثى ، وخَلْق عيسى عليه السلام منها بدون وجود الذكر .

وليعلمنا الله سبحانه وتعالى جميعًا أن الأسباب لا دَخلَ لها في التكوين ، وأن المسبّب هو القادر على أن يُوجِد من غير أب وأم كما أوجد آدم، وأنْ يُوجد من أب وأم كما أوجد جمهرة الناس ، وأن يُوجِد من أم دون أب كما أوجد عيسى ، وأن يُوجِد من دون أم كما أوجد حواء .

إذن : فالقسمة دائرة بقدرة الله وإرادته ، ولا دَخْل لأحد إلا إرادة الحق سبحانه وتعالى ، فالأسباب ليست هي الفاعلة في ذاتها ، بل إرادة الخالق سبحانه هي الفاعلة .

والمعجزة في آدم أقوى منها في عيسى عليه السلام ، أنتم فُتِنْتم في عيسى لأن عنصر الأُبوة ممتنع ، وآدم امتنع فيه عنصرالأبوة والأمومة .

إذن : فالمعجزة أقوى ، وكان الأَوْلَى أن تُفْتَنوا بآدم بدل أن تُفتنوا بعيسى.

ومن العجيب أنكم لم تذكروا الفتنة فى آدم ، وذكرتم الفتنة فيما فيه عنصر غائب من عنصرين غائبين فى آدم ، وكان من الواجب أن تنسبوا هذه القضية إلى آدم ، لا إلى عيسى ، ولكنكم لم تفعلوا.

ورسول الله ﷺ قال له الحق سبحانه ؛ إن القضية ليست قضية إنكار ، ولكنها قضية كاذبة .

اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) ﴾ [الزخرف]

أى : لن يضير الله سبحانه وتعالى أن يكون له ولد ، ولكنه جَلَّ جلاله لم يتخذ ولدًا ، فلا يمكن أن يعبد الناس شيئًا لم يكن لله ، وإنما ابتدعوه واختلقوه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) ﴾

[الصافات]

ويقول تعالى :

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) ﴾ [الزمر]

فكيف تريدون أن تفرضوا عليه سبحانه ولدًا ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [مريم]

متى اتخذ الرحمن الولد؟ وفى أى قرن حدث هذا ؟

هل حدث هذا من ميلاد المسيح ؟ مع أن هذه المقُولة لم تَأتِ وتظهر إلا بعد ميلاد المسيح بـ ٣٠٠ سنة .

وأيضًا .. ما الذى زاد فى مُلْك الله بعد أن جاءه الولد ؟

واقع الأمر يُؤكِّد أنه لم يَزِدْ شىء ، فالشمس هى الشمس ، والنجوم هى النجوم ، والهواء هو الهواء .

إذن : الذى كان يُدير هذا الكون قبل مجىء الولد هو هو لم يتغير سبحانه.

إذن : مَقُولةُ اتخاذ الولد ما هى إلا عَبث ؛ لأنه لم يزد شىء فى الملك على يد هذا الولد ؛ فلم تكن هناك صفة مُعطَّلة عند الحق سبحانه وتعالى ، وجاء هذا الولد فأكمل الكون بهذه الصفة .

بل إن الصفات الكمالية لله ، قبل أن يخلق أىَّ شىء . هو خالق قبل أن يخلق ، ورازق قبل أنْ يرزق ، ومُحي قبل أن يُحي ، ومُميت قبل أن يُميت .

لأن الحق سبحانه بهذه الصفات أوجد الأشياء .

ونضرب لهذا مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما نقول : فلان شاعر.

وحيثية إطلاقنا هذه الصفة أنه قال قصيدة جيدة ، أخذت بأسماع وقلوب السامعين له .

ولكِنْ هل هو أصبح شاعرًا بعد أن قال القصيدة ؟ أم لأنه شاعر ابتداءً قالها ؟

إذن : صفة الكمال تُوجد أولاً قبل مُتعلقها .

ويستنكر الحق سبحانه هذه القَوْلة ، فيقول لهم :

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ [مريم]

والإدُّ هو المتناهى فى النُّكْر والفظاعة ، مِنْ آدَهُ الأمرُ إذا أثقله ، ولم يَقْوَ عليه .

ولذلك يقول تعالى فى آية الكرسى :

﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة]

لا يؤوده ، أى : لا يثقله .

فكأن هؤلاء القائلين بأن الله اتخذ ولدًا ، قد جاءوا بأمر لا تتحمله الجبال لثقَله وفظاعته وعظيم نَكَارته .

ولسنا نحن فقط الذى نتكرَّه هذا الأمر ، بل إن الأشياء التى لم تُكلَّف ترتجُّ له وتهتزُّ له من شِدَّته .

ولذلك يقول تعالى :

﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ [مريم]

ومعنى تفطُّر السماوات ، أى : تتشقق وتصبح مِزَعًا [1] ممزقًا .

---

(١) المُزْعة : القطعة من القطن والريش واللحم ونحوها . ومَزَّع اللحم فتمزَّع : فرَّقه فتفرق . والتمزيع : التفريق . يقال : مزّع فلان أمره تمزيعًا إذا فرَّقه . وتمزَّع غيظًا : تقطَّع . [لسان العرب ـ مادة : مزع] .

هذه السماء يقول عنها الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ(١) ﴿٦﴾ ﴾ [ق]

هذه السماء ، وهى غير مُكلَّفة ، يكون شأنها أنها توشك أن تتفطَّر .

ولكن ، لماذا لم تنفطر ، وقد قيل هذا القول المستبشع ؟

والحق سبحانه يعطينا سبب هذا فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر]

ولذلك ففى الحديث القدسى :

«قالت السماء : يا رب ائذن لى أن أسقط كسفًا (٢) على ابن آدم ، فقد طَعِم خَيْرَك ومنعَ شُكْرك . وقالت الأرض : يا رب ائذن لى أن أخسف بابن آدم ، فقد طَعِم خَيْرك ومنعَ شكرك. وقالت الجبال : يارب ائذن لى أن أخِرَّ على

(١) الفَرْج : الشَّق . الجمع : فروج . فالسماء متماسكة لا خلل فيها . ولا شقوق . فالفَرْج : الخلل بين الشيئين . [اللسان ـ مادة : فرج] .

(٢) الكسف والكِسْفة : القطعة مما قطَعْت . قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ [سبأ]

ابن آدم ، فقد طَعِم خَيْرك ومنعَ شُكْرك . وقالت البحار : يا رب ائذن لى أنْ أُغرِق ابنَ آدمَ ، فقد طَعِم خَيرْكَ ومنعَ شُكْرك » . (١)

فماذا قال الحق لهم ؟

قال : «دعونى وخلقى .. لو خلقتموهم لرحمتموهم .. إن تابوا إلىَّ فأنا حبيبُهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبُهم» .

وحيثية انفطار السماء ، وانشقاق الأرض ، وخرُور الجبال هى :

﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ [مريم]

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم]

فهناك شىء اسمه «نفى الحدث» ، وشىء آخر اسمه «نفى انبغاء الحدث» .

والقرآن يقول فى موضع آخر عن رسول الله ﷺ :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس]

---

(١) مما ورد فى معنى هذا ما أخرجه أحمد فى مسنده (١ / ٤٣) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات ، يستأذن الله عز وجل أن ينفضخ عليهم ، فيكفه الله عز وجل » . قال الشيخ أحمد شاكر فى تحقيقه للمسند : «إسناده ضعيف ، لجهالة الشيخ الذى روى عنه العوام بن حوشب ، وأبو صالح مولى عمر مجهول أيضًا » .

فلو قال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس] فحسب ، لاقتضى هذا أن محمدًا ليست عنده مُقوِّمات قَول الشعر . مثل : رِقة الإحساس ، والثقافة الواسعة . وهو ليس عنده شيء من هذا .

فيُبيِّن ربُّ العزة أن رسول الله ﷺ عنده الاستعداد ، ولكن لا ينبغى أن يكون شاعرًا ، ولا يليق به [1] ، ولا يتأتَّى له هذا مع كونه حاملَ رسالةٍ ، عِمادُها القرآن ، وهو كلام الله .

هكذا هنا لا ينبغى أن يكون للحق سبحانه ولد ، أما الحَدَثُ نفسه فإنْ أراده الله يكون ، ولكن لا ينبغى له هذا سبحانه .

فعلى فَرْض أن الولد بَارٌّ وطائع ، فهل هناك أحد مُتمَرِّد علىَّ ؟

لا ، فالكُلُّ عبيد للرحمن .

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم]

---

(١) قال السيوطى فى الدر المنثور (٧ / ٧١) عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس] أخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه قال : بلغنى أنه قيل لعائشة رضى الله عنها : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟

قالت : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت أخى بنى قيس ، يجعل آخره أوله ، وأوله آخره ، ويقول :

- ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار -

فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ليس هكذا . فقال رسول الله ﷺ : «إنى والله ما أنا بشاعر ، ولا ينبغى لى».

حتى الذين كفروا فإنهم عبيد لله ، فالإنسان له منطقة اختيار ، يستطيع أن يفعل أو لا يفعل ، ولكن هناك منطقة قَهْرٍ ليس للإنسان فيها اختيار .

فالكافر بما أعطاه الله من صفة الاختيار والقدرة عليه ، له أن يكون طائعًا أو عاصيًا ، مؤمنًا أو كافرًا .

يقول تعالى :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

فالكافر تعـوَّد على المخالفة ، متمـرِّد على الإيمان ، ولكِنْ إذا مرض ، هل بِوُسْعه التمرُّد على المرض ، ورفضه ؟

هل إذا جاءه الموتُ يستطيع أنْ يُنجى نفسه منه؟

إذنْ : فالإنسان له اختيار فى شىء ، إنما هو عبد فى كل الأشياء

ثم إن منطقة الاخـتيـار نفسهـا تمتنع فى الآخرة ، فأنت مُـختَـار فى الدنيا (تفعل) أو (لا تفعل) . أما فى الآخرة . فلا .

ولذلك لا بُدَّ أن نُفرِّق بين «العبيد» ، و «العباد» .

فكلنا عبيدُ الله ، بدليل الأشيـاء التى تجرى على الجميع ، ولا يستطيع أن يخالفها أحدٌ مثل : المرض ، والموت .

أما العـباد فـإنهم يدخلون منطقة الاخـتيـار بمحْضِ إرادتهم، ودخلوا فى التكليف ، وأصبحت كل تصرفاتهم وِفْقًا لما يريده الله .

ويقول تعالى :

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ [مريم]

فَهُمْ وإنْ كانوا فى ظاهر الأمر فى الدنيا لهم أمور يخرجون فيها عن مُرَادِ الله ، فهناك أمورٌ أخرى لا يستطيعون أن يخرجوا فيها عن مُرَادِ الله .

ثم يقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) ﴾ [مريم]

والإحصَاء : العدُّ . وكانوا يَعُدُّون بالحصَى ، أما نحن فنعُدُّ الآن بالسبحة.

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ [مريم]

فَكُلُّ إنسان سيأتى بمفرده ، وستتفرَّق عنه العزْوة والعشيرة ، وسينصرف عنه الولد والزوجة ، وسيفرُّ منه الأهْلُ.

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ (١) مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ (٢) وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

---

(١) قال عكرمة . «يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه أى بعل كنت لك ؟ فتقول : نعم البعل كنت ، وتثنى بخير ما استطاعت . فيقول لها : فإنى أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لى لعلّى أنجو مما ترين . فتقول له : ما أيسر ما طلبت ، ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئًا ، أتخوف مثل الذى تخاف .

قال : وإن الرجل ليلقى ابنه ، فيتعلق به ، فيقول : يا بنى ، أى والد كنت لك ؟ فيثنى بخير ، فيقول له : يا بنى إنى احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلّى أنجو بها مما ترى . فيقول ولده: يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا » . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٤٧٣) .

(٢) صاحبه : عاشره . والصاحب : المعاشر . والمقصود بالصاحبة هنا زوجته ورفيقته فى الحياة.

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر :

﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ (١) حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ (٢) الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) ﴾ [المعارج]

ولذلك كان قول الله عز وجل الحاسم لأهل الكتاب :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا (٣) فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ (٤) أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ . لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) ﴾ [النساء]

فالحقُّ سبحانه يُوجِّه أمرًا لأهل الكتاب أنْ لا يغلوا فى دينهم . والغُلُوُّ هو: الخروج عن حَدِّ الاعتدال فى الحكم ؛ لأن كل شىء له وسط وله طرفان ، وعندما يُمسك شخص طَرفاً نطلب منه ألاَّ يكون هناك إفراطٌ أو تفريط .

---

(١) الحميم : القريب الذى تودُّه ويودُّك. والحميم :القرابة . قال الفراء فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) ﴾ (المعارج) أى: لا يسأل ذو قرابة عن قرابته ، ولكنهم يعرفونهم ساعة ثم لا تعارف بعد تلك الساعة . وقال الجوهرى : حميمك قريبك الذى تهتم لأمره . [لسان العرب ـ مادة : حمم] .

(٢) فصيلة الرجل : عشيرته ورهطه الأدنَوْن . قال ابن الأثير : الفصيلة من أقرب عشيرة الإنسان . وأصل الفصيلة : قطعة من لحم الفخذ . [لسان العرب ـ مادة : فصل].

(٣) غلا فى الدين والأمر يغلو غلوًا : جاوز حَدَّه وأفرط فيه . والغلو : التشدد ومجاوزة الحد . [لسان العرب ـ مادة : غلا] .

(٤) أطلقت الكلمة على المسيح عيسى بن مريم فى قوله: ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ (١٧١) ﴾ [النساء] هى قوله «كُنْ» . فهو مخلوق بغير أب بأمر الله «كُنْ» .

وقد وقع أهل الكتاب فى هذا المأزق ، فلم يأخذوا الأمر بالاعتدال دون إفراط وتفريط .

لقد كفر اليهود بعيسى ، واتهموا مريم بالزنا ، وهذا غُلُو فى الكُرْه .

وغَالَى النصارى فى الحب لعيسى ، فقالوا : إنه إله ، أو ابن إله ، أو ثالث ثلاثة .

وهذا وذاك غُلُوّ ، ويطلب الحق سبحانه منهم أنْ يقفوا من أمر الدين موقفَ الاعتدال .

﴿ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ.... (١٧١) ﴾ [النساء]

وقد قال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه :

«إن فيك من عيسى مثلاً ، أبغضته اليهود حتى بهتوا [١] أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذى ليس له » [٢]

فاليهود اتهموا سيدتنا البَتُول [٣] المصطفاة مريم بما ليس فيها ، والنصارى جاءوا بالمغالاة فى الجهة الأخرى ؛ لذلك يأمرهما الحق سبحانه بعدم المغالاة ؛ لأن الحق لا يتعاند ، فهو شىء ثابت لا يتغير أبدًا ، ولا يتعارض .

---

(١) بهت الرجل يبهته بُهتانًا فهو بهَّات . أى : قال عليه ما لم يفعله . والبُهْت : الكذب . وباهته : استقبله بأمر يقذفه به ، وهو منه برىء . [لسان العرب ـ مادة : بهت] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١ / ١٦٠) ، وابن أبى عاصم فى السنة (٢ / ٤٨٤) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

(٣) البتول من النساء : المنقطعة عن الرجال لا أرب لها فيهم ، وبها سُمِّيت مريم أم المسيح. ويقال : البتول هى المنقطعة إلى الله عز وجل فى الدنيا . [لسان العرب ـ مادة : بتل].

والحق سبحانه يؤكد على بشرية عيسى عليه السلام وأمه ، فيقول :

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ [١] مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ [٢] (٧٥) ﴾

[المائدة]

فهما يحتاجان كسائر البشر لما يُقوِّم حياتهما من طعام وشراب وكِسَاء ، والألوهية المدّعاة ، وبُنوّة عيسى لله سبحانه يتنافيان مع هذا الاعتقاد الباطل ، وهذا هو الإفك بعينه الذى يتصادم مع العقل المجرد عن الهوى .

والحق سبحانه يُطمئننا أنه ليس عنده مراكز قُوى ، تؤثر عليه أو تضغط عليه فى أى شىء ، كما يحدث لنا نحن البشر . فيقول سبحانه :

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ [٣] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا (٣) ﴾ [الجن]

فالزوجة والولد هما وسائل الضغط على مرادات الإنسان، فالتأثير يأتى عادة من الصاحبة والولد ، ولكنه سبحانه مُنزَّه عن ذلك ، فليس هناك مؤثرات على الحق تُؤثِّر عليه كما تؤثر على البشر .

---

(١) خلا الشئ خلواً : مضى . والقرون الماضية : هم المواضى . التى مضت وسبقت . [لسان العرب ـ مادة : خلا] .

(٢) الإفك : الإثم والكذب . والأفَّاك : الذى يأفك الناس أى يصدهم عن الحق ببـاطله . ورجل أفَّاك وأفيك : كذاب . والمأفوك : المأفون ، وهو ضعيف العقل والرأى . [لسان العرب ـ مادة : أفك] .

(٣) جَدَّ فلان : عَظُم عِظَمًا . والجد : العظمة والمجد .وقال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا (٣)﴾ (الجن) أى : أنه تعالت عظمة ربنا وتعالى مَجْدُ ربنا .

والحق سبحانه تنزَّه عن هذه الأمور ، فليس عنده صاحبة حتى يكون له ولد .

ولهذا فإن الرحمن جَلَّ وعلاَ ، يعلمنا أنه ترفَّع عن أن يتخيل أحد من البشر أن له ما للبشر من زوجة وولد .

ولأن الله سبحانه وتعالى يعلم أن البشر يُعَانُون أحيانًا من زَلَل [1] الأبناء والزوجات ، فَيُطمئنهم أنه أعْلَى من أنْ يختار لنفسه مَا أعطاه للبشر .. الزوجة والولد .

ويُؤكِّد لنا ذلك فى سورة الإخلاص :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا [2] أَحَدٌ ④ ﴾ [الإخلاص]

حين يتكلم الحقُّ سبحانه عن ذاته ونفسه ، قد يتكلم بضمير المتكلم ، فيقول :

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا ..... ⑭ ﴾ [طه]

وقد يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨ ﴾ [الحجر]

---

(١) الزَّلل : الخطأ والذنب .

(٢) الكفىء والكُفْءُ والكُفُوءُ : النظير . وتقول : لا كفاء له . أى : لا نظير له . والكُفْء : النظير والمساوى . لسان العرب ـ مادة : كفأ .

ومرة يتكلم عن ذاته بما نسميه نحن ضمير الغيبة ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ .... ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنعام]

لأن ضمير المتكلم معه دليله ، إن المتكلم يقول : أنا ، ويخاطبك فيقول : أنت .

لكن الذى يتكلم بضمير الغيبة لابُدَّ أن يعود الضمير على مرجع لهذا الضمير ، وحين يتكلم الحقُّ سبحانه عن ذاته بما يُسمّى لدينا ضمير الغيبة ، فإنه سبحانه يريد أن يُبين لنا أنه فى أَجْلى مجالى المشاهدة والحضور .

فكأنه إذا قال «هو» لا تنصرف إلا إلى ذاته العُلْيا ، فكأنه لا يوجد مرجع ضمير إلا هو .

ولذلك يقول :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص]

وسبحانه يقول «هو» قبل أن يذكر المرجع ، وهو الله ، مع أن الأصل فى المرجع أن يتقدم .

فكأنه إذا أُطلق هذا الضمير فلا ينصرف إلا إلى ذاته سبحانه .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

وهنا قضيتان :

القضية الأولى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ .... ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

إلهكم : يعنى أن المعبود إله واحد ، فالواقع أن الإله الحقَّ موجود قبل أنْ يُوجد الكفر .

والقضية الثانية : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ .... ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

لأن غفلة الناس هى التى جعلتْ بعضًا من نفوس الناس تلتفت إلى آلهة أخرى .

وقوله الحق سبحانه أنه إله واحد ، أى : ليس له ثانٍ. والفارق بين «واحد» و «أحد» هو أن «واحد» تعنى ليس له ثانٍ ، و «أحدَ» يعنى ليس مُركَّبًا ولا مُكوَّنًا من أجزاء .

ولذلك فالله لا يمكن أن نصفه بأنه «كُلّ» أو «كُلىّ» ؛ لأن «كل» يقابلها «جزء» ، و«كلى» يقابلها «جزئى» ، و«كل» هو أن يجتمع من أجزاء .

والله مُتفرِّد بالوحدانية ، وسبحانه المنزّه عن كل شىء ، وله المثلُ الأعلى .

وأضرب مثالاً للتقريب ، لا للتشبيه .

إن الكرسى «كل» مُكوّن من خشب ومسامير وغِراء وطلاء ، فهل يمكن أن نطلق على الخشب أنه «كرسى» ، أو على المسامير ، أو على الغراء ، أو على الطلاء؟

لا ... إذن : كل جزء لا يطلق على «الكل» ، بل الكل ينشأ من اجتماع الأجزاء .

و «الكلى» يُطلق على أشياء كثيرة ، لكن كل شيء منها يحقق الكلى ، فكلمة «إنسان» نقول عنها «كلى» ، جزئياتها : محمد وزيد وبكر وعمر وخالد. فنقول : زيد إنسان ، وهو قول صحيح .

ونقول : عمر إنسان ، وذلك قول صحيح .

والله سبحانه وتعالى لا هو «كُلِّىّ» لأنه واحد .

ولا هو «كُلّ» لأنه أَحَد .

إن القضية الأساسية فى الدين هى :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

والقرآن لا ينفى ويقول : لا إله إلا هو ، إلا حين توجد غفلة تعطى الألوهية لغير الله ، أو : تعطى الألوهية لله ولشركاء معه .

إن القرآن ينفى ذلك ويقول :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

وليس هناك شيء غير الله إلا نعمة منه سبحانه ، أو مُنْعَم عليه .

إن ما دون الله إما نعمة، وإما مُنْعَم عليه بالنعمة ، وهذه كلها نَفْح الرحمن ، ونَفْح الرحيم ، وما دام كل شيء ما عدا الله إما نعمة وإما مُنْعَم عليه ، فلا تُوصف النعمة بأنها إله ، ولا يقال فى المنْعَم عليه : إنه إله [1] .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة]

لأن المنْعَمَ عليه معناه أن غيره أفاض عليه نِعمَه ، لأن النعمة مَوْهوبة ، والمنْعَم عليه مَوْهوب إليه ، فإذا كانت هِبة أو موهوبة إليه ، فلا يصح أن تكون إلهًا .

والحق سبحانه يقول :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

إنه الحقُّ الذي نَصَب الأدلة فى الوجود على قيوميته [1] ، وعلى أنه إله واحد ، فقد شهد الله أنه لا إله إلا هو .

وبالله لو لم يكُنْ قد شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، وليس هناك مَنْ يعارض مُبْتغاه ، أكان يُجازِف فيقولها ؟

إنه الحق الأعلى الذى شهد أن لا إله إلا هو ، فساعةَ أن يقول : «كُنْ» فإنه قد علم أنه لا يوجد إله آخر يقول : «لا تكُنْ».

فهذه شهادة الذات للذات ، وكَفَى بالله شهيدًا ، وشهدت الملائكة أيضًا ، والملائكة هم الغَيْب الخفىّ عنَّا ، وتتلقى الأوامر من الحق .

إن الملائكة لم يَرَوْا أحدًا آخر يعطى لهم الأوامر ، إنه الإله الواحد القادر ، وهذه هى شهادة المشهد .

---

(١) القيوم : سبحانه أى القائم بأمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بمستقرهم ومستودعهم . وهو سبحانه القائم بنفسه مطلقًا لا بغيره ، وهو مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يُتصور وجود شىء ولا دوام وجوده إلا به .

ويُضاف إلى الملائكة «أولو العلم» ، بشهادة الاستدلال .

فكأن الآية تقول لنا :

إذا ثبتتْ شهادة الذات للذات ، وشهادة المشهد من الملائكة ، وشهادة الاستدلال من العلماء ، فإن القاعدة تكون قد استقرت استقرارًا نهائيًا لا شَك فيه ، فخذوها مُسَلَّمة : «لا إله إلا هو».

وعظمة الحقِّ سبحانه أنه : واحد ، أحد، فَرْد ، مُتفرِّد ، صَمَد ، وهو عزيز لا يُغلب على أمره ، وهو صاحب كل الحكمة فى وضع الأشياء فى مواضعها ، بحيث إذا ما عرفتَ حكمة ما يُجريه الله سبحانه وتعالى على خَلْقه ؛ فأنت تتعجَّبُ من عظمة قدرة الله .

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

[يونس]

فلا يوجد فى الكون حَقَّانِ ، بل يوجد حَقٌّ واحد ، وما عداه هو الضلال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

إذن : أنتم إن وجَّهتم الأمر بالربوبية إلى غيره ، تكون قد ضللتم الطريق ، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها ، فتتجه إلى طريق لا يُوصِّل إليها ، فإن صُرِفتم من الإله الحق فأنتم تَصِلُون إلى الضلال .

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بما يُبيِّن أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال ، فيقول سبحانه :

﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

أى : أنكم إن انصرفتم عن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فإلى الضلال ، والحق واحد ثابت لا يتغيَّر .

ومَنْ عبد الملائكة أو الكواكب أو النجوم ، أو بعض رسل الله ـ عليهم السلام ـ أو صَنمًا من الأصنام ، فقد هَوَى إلى الضلال .

فالحمد لله الذى لم يتخذ ولدًا ؛ لأنه لم يلد ولم يولد ، وهو أحد .

والحمد لله الذى لم يتخذ شريكًا فى الملك ، لأنه واحد .

والحمد لله الذى لم يكن له وَلِىٌّ من الذُّلِّ ؛ لأنه قاهر[1] .

❑❑❑

(١) فهو سبحانه القهار القادر على أن يبطش بمن يقولون هذا القول ، ويفترون هذه الفرية ، ولكن انظر إلى قول رسول الله ﷺ : «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، يجعلون له ولدًا ، وهو يرزقهم ويعافيهم ». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى .